قصّة قصيرة

ميلاد

عبد الله خليفة

كان الكاتب جاثماً بين أفراد شلّته. أضواء وكؤوس شفّافة بالعطر، وموج البحر يتلألأ وراء الشّرفة، وكعكة كبيرة نُقشت عليها سنواته الخمسون بالحليب الذهبي. إلاّ أنّه جلس كئيباً، صامتاً، تتراءى ذبذبات غريبة وراء ماء عينيه الأسود العميق.

مدير مجلّة ذو وجه صالح لكلّ الفصول والأغلفة، وفتاة جميلة وضعت قدميها المشتعلتين ضياءً وفتنة أمام وجهه، ونصف دستة من الرّجال المعتّقين في تفتيت اللّغة ولحوم الخراف، وثلاث سيّدات مرحات يُبعدن الخريف أبداً.. كلّ هذا الحضور المشعّ بالفكاهة والألق، لم يزحزحه من قبو حزنه.

لكنّه كان في داخله يتفجّر حيويّة وضجّة. تندفع ثيران نشطة في قلب التربة، وتصهل طاسات الأفراح بالرنين، ويجد نفسه بلا بدلة أو ربطة عنق، ببنطلونه العتيق ذاته ودرّاجته المتعتعة على الأرصفة، وهو يقتحم ذلك الزّقاق، ويدخل البيت الكبير، وحجرته الوحيدة الّتي اختارها، وهو يحيّي أهل البيت، جيرانه المختلفين، وينتزع سيجارة من علبة تبغ حديديّة، ويرتجف برداً بين الجدران، ويكتب بدفءٍ عنيف يتصاعد من نافورة داخليّة بهيجة.

صفّقوا، وقاموا، وقبّلوه وقبّلوا بعضهم بعضاً، واحتضنته شيخة، بجسدها الرّبيعيّ، ودكّان عطرها المفتوح. وصاحوا يريدون كلمة منه. تأمّلهم بحزن، وقال بجفاف، كأنّه يتدرّب على فتح علب السّردين بأظافره في الغرفة البعيدة:

ـ لن أطيل عليكم، ولن أتعبكم بكآبتي. لقد قرّرت اعتزال الكتابة. سأنهي حياتي الأدبيّة!

وكان للجُمل وقع نزول الأسهم في البورصة. أسئلة منفجرة وغمغمة وضحكات مكبوتة. وحده مدير المجلّة وقف صامتاً، وقال:

ـ هذا ما سمعته السنة الماضية!

وتنهّدت شيخة:

ـ تدع كتبك الجميلة، ومسلسلاتك المسلّية.. وكلّ هذه الثروة!؟

وقف بهدوء وجمود، لا ينتظر منهم موافقة. كان هذا القرار يعتمل في نفسه منذ مدّة طويلة. كانت وجوه أبطاله التلفزيونيّة، وحركاتهم المفتعلة، وجملهم الغبيّة، تجعله يتوارى عن الأنظار، ولا يقترب من أيّ حبل سميك قد يلتفّ حوله ويصير مشنقة. ورغم صيحات الإعجاب من أطفال الجيران، ونافورات الضّوء في عيون المارّة، فإنّ ضربة مباغتة على وجهه، وبيضاً فاسداً ظلّ يجمع بحيراته المتجمّدة على سيّارته، جعلته يزحف نحو قبو الندم المشتعل.

قال:

ـ إنّني لم أكتب شيئاً ذا قيمة سوى كتابي الأول. ذلك القميص الممزّق الّذي سرتُ به في المدينة المتبجّحة. عاري ودمي وناري. رويتُ فيه مأساة بلدتي، وجوهها وشيوخها المنطفئون وجذوعها الممتدّة كالأيدي إلى السّماء، أدخلتكم إلى معدتها الخاوية إلاّ من الحصى. ثمّ عشرة كتب بليدة، ظلّت تطاردني كالشحاذين المسعورين. كرّرتُ فيها نكاتي ورقصاتي المجنونة تحت الشّبابيك. الآن سيسدل السّتار على أكذوبة كاتب.

صفّق الحاضرون وهم يصرخون ويبكون ويأكلون الكعكة والسّنوات الخمسين، واحتجّوا من بين أسنانهم، وفاضت بيرة وحيرة وضحك.

وكان هو يسير وحيداً على رصيف الأوراق الميتة. خرج من جسده المتخثّر. أوراق كثيرة نسخها شبحه المتواري. هو وحده الآن، يطير بقميصه المشتعل. يعرف أنّ البروق تمشي قرب الشّرفة، والأشجار ترتعش حبّاً.

ـ نعم.. العام الماضي.. حاولت..

مضى يتكلّم، كـأنّـه يحـدّث نفسـه. ولكنّ صـوتـه كـان حـادّاً، وغريباً، ومألوفـاً، يتدفّق من شـلّالات بعيدة، يهـدر فجأة، ويخفت بحدّة.

ـ كنت أقتـربُ من نفسي.. حينذاك.. رأيتُ يـديَّ فارغتـين.. ووجهي يخصُّ شخصـاً آخر. تسـاءلتُ: لماذا أسكنُ في بيتـه وأُدمي جلدي بأمواسه؟ الورق الّذي أبحلق فيه دائماً، ما عرفته. من هـذا الرّجل الواقف في المرآة؟ سأخرج من هذا المكان. سأتّصل بصـاحبه كي يـأخذه.. رأيت صـورة أمّي وهي تغتسل عـلى السّطح! تنـتزع الماء بالمغرفة لينهمر فوق شعرها الأبيض.. كان هذا بيتنا في القرية. ضحكت. بكيت. أمّي ذابت هنـاك. المـاء لايـزال يـطرطشُ عـلى الإسمنت المتبعّج، وبـركـة كنتُ أزيحهـا بقـدمي. وأغتسـل معهـا ضاحكاً. أيّ ماء يستطيع غسلي الآن؟!

تطلّع فيه مدير المجلّة منزعجاً:

ـ ألا يستقيـل أيضاً من هـذه الحركـات الصبيانيّـة؟ وهذا الـدّمـع والهـذيان؟ غـداً سيتّصـل بي لمتـابعـة حسـابـاتـه وسيسـأل عن اتّجـاه الرّياح، ويغـازل السكرتـيرة. لِمَ هو وضيـعٌ وتافـه ومرتبـك إلى هذا الحدّ؟ عليّ أن أتحمّـل، وأغرق في الـويسكي والمقبّلات وسهـام الّتي تطالعني بودّ منذ بدء نافورة البكاء.

وسمعوا الكاتب يصرخ فجأة:

ـ كتب خاوية، مسلسـلات فارغـة لوّثتني! حـين أردتُ أن أكتب قصّة قريتي، وعرضتُ أفكارها على المعنيّ بالأمر، حـدّق فيّ مذهـولاً وصاح: ألاتزال بقـايا الهلوسـة في دمك؟ حـين حملتُ إلى أمّي نقود مسلسـلي الأوّل أغلقت البـاب في وجهي. ثمّ مـاتـت وأنـا في مهرجان..

ابتسمت شيخة بودّ. إنّها تعرف لحظات صدقه الفاجعة النّـادرة. يهتزّ كطفل ويبكي كأنّه يتعرّى، ممزّقاً جلده بأظافره. يروي لها أشياء فظيعة. صناديق معلّقة وأجسام ممدّدة فارغة من الماء. أفواه تغـوص في المـزابـل. قبضـات مشتعلة. صراخ، صراخ ونحيب، ثمّ يهـدأ ويحتسي ميـاه كلّ الـزّجاجـات، ويـذهب معهـا إلى شقّـة أصـدقـاء فيحشّش ويرقص، وفي الظّهر يركض بـائعاً أوراقـه وجواربـه. ومرّة توسّطتْ بـدمها عنـد أحدهم لكي يخـرجه من السّجن حـين اعتدى على صبيّة. هل يروب الماء وتغدو البومة وردة؟

أنا أنتظرك أيّها التّائب غداً!

الصّمت الـرّهيف أوقف قرع الكؤوس والقُبـل، وبدأت الأيـدي تتحسّس عروقها، والمرايا الصّغيرة تنبثق من حقائب اليـد، والعيون ترتمي فوق تلك الجثّة الصّائحة، السّاكنة، تخشى انفجاراتها المتتالية ولـوعاتهـا، وارتقى جحيم من الملل فوق جسـد السّهـرة الجـريـح، وتقدّمت عقارب الزّمن في الرمل واللّحم.

كتب كثيرة، وصور كثيرة لهذا الوجه المبتسم، ومقابلات أنيقة، وسفرات، ومانشيتـات كبيرة، وأرصـدة، وأكثر من قـولون ينتفض، وشقّة فخمة وأحذية ملوّنة، والمعدة تنتفض بعـد كلّ سهـرة. وحين ذهبتُ إلى بيتنـا في القريـة، كـان إخـوتي لا يعـرفـونني. استـطالت لحاهم، وتكرمشت مـلابسهم، وتغضّنت وجوههم. وجـدتُ الباب مغلقاً. وكنتُ أتمنّى أن أدخل وأصعد إلى السّطح، لأرى القـرية من هناك. كانت خضراء ومضيئة في الطّفولة. ياه! أين الماء يهطل عليّ، وفقاقيعه المضيئة تدغدغ جسدي؟

اقتربتْ سهام من مدير المجلّة، ووضعت رأسها قرب أذنه:

ـ أهو ميلاد أم وفاة؟ يا ليته ينسى أبداً لحظات الصّدق هـذه... ويتجلّى راقصاً مقبـلاً، ينهمر الـدّخان من أذنيـه وتتعدّد الأقنعـة على وجهه..

ـ هي ساعة نجامله فيها.. ولا تنسي أعمـدته الملتهبـة وعلاقـاته المخيفة!

ـ دعـك منـه فهـو لا يقتـل قملة. حـاول معي كثيـراً وهـدّدني ومدحني وقبّل قدمي بلا فائدة!

تسلّل أحد الرّجال في غبار الصّمت المحـترق، وقال نكتـة، تبعه آخر بحكاية بذيئة، انفجرت بعدها الضّحكـات وقُرعت الكؤوس. وفي ورق الضّحـك المتطايـر نهض الكاتب، وسـار كـأنّـه يسبح في حلم. قطّع ورق الهدايا الملوّن، وقبّعات الطّفولـة وخطوط الحـرير، واندفع في حقـل قمح محصـود تحت طاقيّـة سماء بيضـاء. وفي الأفق كانت فتاة تجري وتغني.. لايزال يتذكّر رائحة أصابعها، وتوغّلها في شعـره وخدّه، وبـطنها الّـذي انتفخ، والبـاصّ الّـذي حمله بعيـداً، وغلالتها السّوداء تتضاءل كثقب كونيّ يبلع كلّ شيء.

والتفتَ بغضبٍ إلى الجمـع الهادر بـالضحك، الّـذي أغـرورقت عيناه وأنفه بالدّموع والمخاط، ورأى سيقان النّساء المفتوحة كالبرونـز ومغارة عليّ بـابا النـافثة لصـوصاً وثعـابين، ووجـوه الرّجـال المخفيّة بأقنعة الشياطين والمهرّجين، وسمـع روحه تغني وتبكي في الأعـالي، وحيه السّفلي، وكأنّ قطارات تصفر، وأجراساً تُقرع، ويـداً تمتدّ من الحقل المهجور، وسحابة سوداء تمطر، وهـو يغرق تحت مـاء دافق، وقدماه تسيران نحو باب الشقّة، وتصافحان درجات السلّم الأنيقة، وهواء الشّارع الذابل...

البحرين